

العبارات؟ ألم يكن من الأجدى أن تشير المعلمة إلى العبارات المتميزة التي وردت في نص هذا التلميذ وفي نصوص أطفال الصف؟ ثم لو قامت المعلمة بتنظيم ملف لكل صف يحتوي على العبارات الجميلة أو المختلفة التي قدمها التلاميذ في نصوصهم، إلا تقدم، لدارسي القولة وكتاب الأطفال والمشتغلين باللغة العربية فرصة رائعة لمعرفة أساليب الأطفال في استخدام اللغة وفهماها؟

هل تحب معلمة اللغة العربية لغتها بما يكفي لكي تغض النظر عن أخطاء القواعد والإملاء، ولكي تنظر فيها كتعبير أصيل عن ذات تتفرق بها ومن خلالها، هل تحبها بما يكفي لكي تجد في عبارات الأطفال لقيات ثمينة تستحق الصقل والعرض كما الجواهر الماسية؟ في دفتر ذلك التلميذ إشارات عديدة إلى أن المعلمة لا تعرف اللغة العربية وإنما فقط تعرف قواعدها، وأنها على الأرجح لم تتلق في ملفاتها بكلمات حركت مخيلتها، لذلك لم تنتبه إلى الحياة الكامنة في الكلمات. هي تعاملت معها باعتبارها رموزاً تجمع ما بينها علاقات منطقيّة معينة، وهي على الأرجح لا تعرف كيف تتراقص الحروف وتنسج منها عبارات من حرارة أجساد الذين يستعملونها، ولا تجد فيها سوى أشكال صماء جمعت وفق طريقة آلية.

هذا ما تؤكده لنا دروس الدفتر نفسه والنصوص الأدبية المقدمة للتلاميذ من أجل التحليل. نصوص جميلة المطلوب من التلاميذ أن يفهموها ويحللوا ويفكروا تراكمها وحولها المعجمية. ولكن وجه الغرابة فيها أنها نصوص من غير توقيع، من غير مؤلف. لا يعنى ذلك بسبب عدم التعليم في المدرسة بإيراد أسماء مؤلفي النصوص، فيوجد للتلاميذ بأنما نصوص مكتملة وموجودة أصلاً، بأنها ليست بآثار أفكار شخص من لحم ودم، اختير وعاش وكتب. تبدو وكأنها نصوص من خارج الحياة.

يقيني أن كل الأطفال يكتبون شيئاً جميلاً لو كنا مهتمين بقراءة نصوصهم. فقط يكفي أن ندرك نحن أن اللغة تعبير ذاتي، وأنها ليست مُنزلّة من عل، ولا تهبط على الأطفال من كتب الكبار، ولا يمتلكونها بالحفظ والتلقين. لا بل بالعكس كلما استطاع التلاميذ أن يبتعدوا عما هو «مكتوب»، أصلاً كلما استطاعوا أن يمتلكوا لغتهم وتعبيرهم وأن يطوروا اللغة

من منا لم يكتب نصاً في مدرسته؟ من منا لم ينل علامة ظالمة على الإنشاء «الجميل» الذي كتبه؟ من منا لم يجداً بالمقدمة ويصلب الموضوع والخاتمة؟ من منا لم تداعب نرجسيته الطفولية خاتمة أقل بها الموضوع على وعد الافتخار والتألق وقراءة موضوع الإنشاء في الصف بصوت عالٍ؟ من منا لم يلعب بالحروف ولم يكتشف معنى معيناً لكلمة طالما سمعها ولم ينتبه لغتها؟ من منا لم يحصل معه ما حصل مع صديقتي التي ما زالت تذكر كيف أنها كانت تتحيز الفرض لاستعمال «إذ» في موضوع الإنشاء وتصطنع عنصر المفاجأة قصداً لإدخالها؟ ومن منا لم تأخذ الحيرة من تلقى أين يضع «بيد أن» بين كلمات موضوع الإنشاء لكي يبدو «ضليعاً باللغة العربية»، فأبعثه كما أبعثني الحيلة حتى غض النظر عنهما نهائياً؟ من منا لم يغرّم بكلمة ولم يشعر بالعداوة تجاه أخرى أو لم ينشر بغربة إزاء كلمة دخلت حديثاً إلى وعيه، ثم بعد حين تألف معها وصارت من أهل وجدانه؟ من منا لم تكن له خزنة سرية يضع فيها كلمات أحلامه وهو جاسه ولواعجه؟ من منا لم يعشق لغته العربية حين كانت واسطته للتعبير عن نفسه ولامتلاك كلمته الخاصة؟

بين مواضيع الإنشاء ونسجنا الشخصي صلة رحم أكيدة. تتغير كلماتنا كلما كبرنا، وتغير كلما استعملنا كلمات جديدة. بعض الكلمات هي مفاتيح لوابيات النضج، ولو انتبه المعلمون لذلك، لربما امتنعوا عن إعطاء علامة، ولوضوعوا في اعتبارهم أن أكثر ما لا يهم في مواضيع الإنشاء هي القواعد والإخطاء الإملائية. في علم النفس هناك طرائق لاكتشاف البنية النفسية للأشخاص، ومنها ما يسمى بالطرائق الإسقاطية، كمثل لوحات رورشاخ، وفيها يقوم المرء بإسقاط ما يعامل في نفسه بشكل لاواع، ويعرف عالم النفس بواسطة طريقة معينة كيف يفكك تراكمها. وأعتقد أن موضوع الإنشاء يلعب في أحيان كثيرة الدور نفسه. غير أن المعلمين ليسوا علماء نفس ليدركوا أهمية ذلك. إنهم معلمو لغة، وجل ما يهمهم هو التركيب اللغوية وليس مضمون ما يقوله التلاميذ في كتاباتهم. ولكن كم برعم أديب أو شاعر ذبل بسبب علامة معلم اللغة العربية؟ وكم ضليعاً باللغة العربية، قواعد وصرفاً ونحواً، هو بعيد عن أدب اللغة وشاعريتها؟ وكم ضليعاً باللغة العربية يتتابك الملل العظيم من الاستماع إلى لغته «المتينة»؟

فهل هنا يكمن الحياء في ما تضح به الندوات والدراسات حول جمود اللغة العربية وتراجعها؟ وهل ثمة علاقة ما بين تلك «المتانة» وذلك الجمود؟ أفكر في كل ذلك وأنا أقرأ في دفتر تلميذ في الثانية عشرة من عمره وفي صف الأول متوسط. يضم الدفتر فروضاً في تحليل النص (ثمانية فروض) وفي الإنشاء (ثمانية فروض). تراوح العلامات التي وضعتها معلمة اللغة العربية على فروض تحليل النص ما بين أربع عشرة علامة وست عشرة علامة. أما علامة الإنشاء فتراوحت ما بين الثمانية وثلاث عشرة علامة. هذه العلامات تعني أن هذا التلميذ يعرف كيف يحلل نصاً أي، مثلما نتبين من الأسئلة المطروحة، يستطيع استخراج مرادفات الكلمات من النص والإجابة على أسئلة تشير إلى فهم النص ويعرف كيف يضع ترسيمية النمط السردى لنص القصة المتقدم له ويعرف كيف يستخرج من النص الحقل المعجمي لبعض الكلمات. بالمقابل فإن علامة الإنشاء تشير إلى أنه في الغالب لا يكتب نصاً جيداً. وبسبب استغرابي لهذا التفاوت في المستوى ما بين «معرفة اللغة» وما بين «استخدامها» قرأت مواضيع الإنشاء التي كتبها ذلك التلميذ لأعرف ما الذي لم يعجب المعلمة. فوجدت أن تقييم المعلمة قد يكون صائباً إذا ما أخذنا بالاعتبار أن ذلك الطفل يقوم بأخطاء قواعد وإملاء ويكتب نصاً قصيراً جداً. ولكن من ناحية ثانية فإن من يقرأ النص يشي من الثقل من قيود اللغة، سيجد أن ذلك التلميذ حاول أن يكون خلاقاً وسعى إلى التفرّد في صياغة جملة، وقدم بعض العبارات التي يمكن أن تشكل أبيات شعر جميلة، ومع ذلك مرت المعلمة عليها مرور الكرام.

في العبارات التي جدتها جميلة في معرض نصوص ذلك التلميذ أنقل حرفياً: «كانت السماء صفافية، تنزّرت فيها بعض الغيوم البيضاء وأوراق الأشجار قد بدأت تفلت من أمهاتها»، «الأم مثل البحر لا حدود لعلنانها»، «هربت العصافير الصغار إلى برّ الأمان، والأم خرجت من الحياة»، «وهني لبنان هو أصغر بلاد العالم ولكن أجملها. أخضر بأشجاره وأرزاه، أزرق بسماؤه وأصفر بسمائه»، «أريت السماء لتلبد بالغيوم السوداء كأنها غيوم تلتقي بعد فراق طويل. وسعت الرعد كأنه طائرات العدو تقصف أرض الوطن»، «تمايلت الأشجار مع الريح، وتخلت عنما أوراقتها لتكمل الحياة بمفردها»، «الشتاء هو راحة الثلوج الجميلة التي ينتشها ما في كروي»، «الحزن معلق على وجهي كأنه لوحة معلقة على جدران أحد المعارض».

لو تمنعنا في ما هو أكثر من جمالية هذه العبارات الأسلوبية، التي لربما حفظها أو نقلها أو وضعها بنفسه، لوجدنا أنها تخبرنا عن ولد يقادر طفولته، وينطلق بعيداً عن أمه، كأوراق الأشجار التي يراها تفلت من أمها. وأن تلك المغادرة لا تتم بغير معاناة، فتلك الأم هي كالبحر تغرق السباح بعطائنها الذي لا حدود له، وعلى الصغار الخروج منه لكي يجدوا الأمان، وما على الأحداث سوى الخروج من الحياة، حياة طفلان. إنه فراق مؤلم، لأن العنان الذي يحدث بعده يلبّد السماء، ولأنه يترك حزناً دائماً معلقاً على الوجوه. والمثير في عبارات هذا التلميذ أنه يخرج من حزن أمه ليدخل في حزن الوطن، مستعيداً في ذلك ومؤكد على العقولة المعروفة التي تربط ما بين الأم والوطن. إنه يستقل عن أمه وإشارات ذلك أنه يتحول إلى مواطن. ليدان يغدو أجمل البلدان والرعد مكره لأنه يذكر يقصف أرض الوطن. إنه ولد يستقل، ومن إشارات استقلاليته لجوّه إلى الوصف الخاص. الغيوم تنزّرت، والحزن يعلق كلوحة، والشتاء راحة الثلوج....

إن هذا يعني أن يأخذ مثل هذا الطفل علامة منخفضة على نصوص تحتوي مثل هذه

## ... إذ ليس من داع لعلامة الإنشاء

فادية حطيط



نفسها. وأن لغة الأطفال تكبر كلما كبروا وتنضج كلما نضجت خبراتهم وكلما نضج وعيهم لهذه الخبرات.

اللغة كما أفهمها أداة تعبير تشبه الرسم. فإذا كان كل الأطفال في لحظة معينة من أعمارهم يرسمون رسوماً جميلة ويكونون مشاريع رسامين، إلا أن موهبتهم هذه تموت حين لا تتلقف التربية رسوماتهم بل بالعكس تضع عليها القيود. كذلك خصوصاً كليمه في لحظة معينة يكونون مشاريع أدباء ومفكرين، لأن تلك التربية نفسها تمارس عليهم التقيع بنفسه.

في ذات ثمة توجه جديد لبعده عيشاً يومياً وللتفتيش عن الجمال في كل تعبير أصيل ذي فزادة، مثلما نلاحظ في أساليب التشكيل الحديثة اليوم. وفي اللغات الأجنبية أيضاً ثمة انتباه أيضاً لنمط هذا النمط. أما في لغتنا العربية فسمّع عن الكثير من النوابيا، والكثير من الندوات، حول تحسين تعليم اللغة العربية، غير أننا على أرض الواقع لا نجد إلا ابتعاداً عنها، وسوى الشكوى من صعوبتها وعدم امتلاكها. أكثر ما أستغربه هي هذه الشكوى تحديداً: اللغة صعبة. وكأننا نقول التفكير صعب. فهل هناك من إنسان سوي لا يفكر ولا يعبر؟ الأصح القول إن هناك من لا يصغي ولا يقيم اعتباراً لما يقال، خصوصاً حينما يصدر عن أولاد صفار. وربما القضية المركزية في كل مسعى لتحسين اللغة العربية تكمن هنا تحديداً، الاعتراف بلغة الصغار، أي الاعتراف بأنها تعبير حي وقلق ومتغير. وأن مناعتها تتبع من مدى صدقيتها وشفافيتها وفراحتها.

لذلك لا داع لعلامة الإنشاء العربي. ولنكتف عن اعتبار الإنشاء العربي درساً يُحفظ ويُسَمَع. ولنجعل ساعة الإنشاء العربي ساعة حرة، يتمتّع فيها الأطفال بنتائجهم الفكري وإبداعهم وصبرهم الذهني. إننا الساعة الوحيدة التي يقبل فيها الصغار الصغار شيئاً خاصاً ومبدعاً؛ ولنكتف نصوص الإنشاء أمام القراءة، فربما قرأت أم ما كتبه طفلها وتعلّمت منه وعنه شيئاً جيداً، وربما انتبهت إلى أنه يطلب الاستقلال عنها، مملياً أنا قارئة ذلك الدفتر، دفتر ابنها الجميل، الذي منذ أن ولد اعلمته كل العلامات التي جرت بها....